بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

شبهات حول الرسالة والرسول ﷺ

لقد ذكر المشركون شبهات عدة حول الرسالة والرسول ﷺ أظهر كذبها القرآن الكريم، ومنها الزعم بأنه ﷺ يفتري على الله سبحانه، أو يعلمه بشر، وجدالهم في كونه بشراً، أو يكون معه ملك، وفي تخصيصه دون غيره ممن يرون فيهم الأهلية لحكم الحياة.. ولم يرد القرآن الكريم على بعض الشبهات بل ذكر أنها تخالف الواقع، وأنهم يتجاوزونه في هذه الشبهات؛ فهي أوهى من نسيج العنكبوت، وإشاعتها دون تفكير أو ثبوت، برهان على عجزهم، وقد عرضها الكتاب الكريم كذلك متهافتة، متناقضة تشهد الأحداث والملاحظات والتجارب بزورها وبطلانها، وذلك أبلغ من الرد عليها، وأدعى على الإيمان بنبوته ﷺ، وأظهر لعجزهم وانهزامهم. ومن تلك الشبهات «الكهانة، الجنون، الشاعرية، السحر»... ونعرض الآن ما ذكروه من الشبه حول نبوته ﷺ، محاولين تبيان بطلانها ببراهين القرآن والعقل، وشهادات الأصدقاء والأعداء، والتحليل النفسي والعلمي لحياة النبي ﷺ، من خلال القرآن والأحاديث وروايات التاريخ الموثوقة التي هي المرجع الوحيد في الحكم على ظاهرة غائبة أو تقييم فرد عاد إلى ربه.

شبهة الافتراء:

لقد اتهم ﷺ بالافتراء.. ووصف القرآن الكريم بالإفك القديم، وهذا في نظرهم تفسيره أنه وضع القرآن الكريم بعلمه المكتسب ثم قال: أنه تنزيل من

الله سبحانه، وهذا لا يتصل بمنهاج علمي ثابت، ولا يعتمد على تفسير موضوعي مجرد، وتنفيه تقريراتهم عنه قبل البعثة، ويرده ما جرى على ألسنة زعمائهم ومسؤوليهم، في اجتماعاتهم السرية المغلقة التي كانوا يفسرون فيها ويتدارسون أمره بينهم ليتوصلوا إلى وسيلة فعّالة في حربه والقضاء المبرم على دعوته، كما يبطله إيمان المقربين منه بنبوته ﷺ وتفانيهم في نصرته مع وقوفهم على أحواله ومعايشتهم له وعلمهم بأخلاقه...

يقول السيد سليمان الندوي في كتابه الرسالة المحمدية في وصف حياته ﷺ قبل النبوة وإطلاع العدو والصديق على مظاهرها ومواقفها، وبرهانها على صدقه ﷺ: «إنه قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث، فكان بين أهلها مشركي قريش، وكان يتعاطى فيهم التجارة، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار، وهي الحياة اليومية وما تنطوي عليه من أخذ وعطاء، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء فيتبين للناس فسادها وصلاحها، وهي عيشة طويل طريقها، كثيرة منعطفاتها، وعرة مسالكها، تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد وأكل مال بالباطل، وعقبات من الخديعة وتطفيف الكيل وبخس الحقوق وإخلاف الوعد. وإن الرسول ﷺ اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة، وخلص منها سالماً تقياً لم يصبه شيئاً مما يصيب عامة الناس...»[1] وحسن خلقه وصدقه نأخذه من أفواه أعدائه ومواقفهم منه:

نبذة من تقارير الأعداء عن أخلاق الرسول ﷺ قبل البعثة:

1 - لما أمر ﷺ بالجهر بالدعوة صعد على جبل الصفا ليعقد اجتماعاً خطابياً، فأخذ ينادي... «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا**

(1) الرسالة المحمدية للندوي، ص: 114 - 115.

الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً!، قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[1].

2 - ولما استجوب هرقل أبا سفيان وساءله عن مظاهر الحياة النبوية ومعالمها البارزة قبل البعثة، وملابسات دعوته وخصائصها، كان هذا الحوار من ضمن المحادثة التي جرت في ذلك المجلس، **هرقل**: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا». وفي نهاية الحوار علق هرقل على جواب أبي سفيان بقوله: «ماكان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله!»[2].

كما أن إيمان المقربين منه حجة على صدقه في دعوى النبوة، وننقل هنا قول «جيبن» للاستئناس: «لم ينجح في الامتحان العسير رسول من الرسل الأولين، من بداية أمره، كما نجح محمد ﷺ حين عرض نفسه بادىء ذي بدء - بصفته رسولاً يوحى إليه - على الذين عرفوا ضعفه البشري، وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم، فعرض رسالته على زوجه وعبده.. وابن عمه وصديقه القديم الذي لم يتحول عنه ولم يخذله، وهؤلاء هم الذي سبقوا الناس إلى الإيمان بنبوته... فلم يكن محمد ﷺ غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه»[3] بل كلما كان الرجل أقرب منه، وأكثر مخالطة له، وأوسع تعرفاً على حياته، وأدوم معايشة له، كلما كان إيمانه بنبوته وصدقه أرسخ وأثبت، ودفاعه عنه ونصرته له أعظم...

---

(1) رواه البخاري في التفسير، سورة الشعراء، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، رقم 4770، وفي مواضع أخرى، ومسلم كتاب الإيمان باب: في تفسير نفس الآية، رقم 208. وأحمد في مسنده برقم 1/ 281.

(2) التجريد الصريح للزبيدي، ص: 7.

(3) الرسالة المحمدية، ص: 132.

استحالة حدوث انقلاب في حياته ﷺ نحو الأدنى

من هذه الوقائع الحية والقرارات المحايدة وروايات من السيرة لم نذكرها نتيقن صدق النبي محمد ﷺ في النبوة، فمن غير المعقول أن يحدث في ساعة من الزمن انقلاب مفاجىء في شخصيته تتغير به معالم خلقه؛ فيغدو الرجل الصادق، المتحري له، الصابر على آثاره ومردوداته، طيلة أربعين سنة من حياته، مفترياً على الله والناس، ذلك أن الإنسان الصالح قد يتكيف تحت تأثير الفكر السائد، والاتجاهات المعاصرة، والتجارب الحياتية المؤلمة، . . ويتنازل عن خلقه وخصائصه الفطرية، بوحي من الإعلام الضار، أو التوجيه المفسد، أو بجذب من الفتنة التي تشد على الحاجة والهوى والشهوات والضعف في كيان الإنسان، أو بفتنة لا يتحملها الإنسان عادة. . ولكن ذلك لا يكون مفاجئاً؛ إذ أن الإنسان له حصانة داخلية ضد عوامل الإعاقة والشر، تعينه على أن يأبى التفريط بخلقه ومنه الصدق، في لحظة، وذلك من فضل الله على الناس حتى لا يكونوا إمّعات. . ومن باب أولى تكون الممانعة من الرسول ﷺ.

فإذا ما نظرنا إلى حياته ﷺ لا نجد أية مؤثرات خارجية قاهرة أو نفسية عابرة، يمكن أن تساهم في تضليل فكره، أو تمييع نفسه، أو صرفه عن وجهته البرة، فأما الوسط الاجتماعي فكان يقدر مواقفه، ويكبر فيه عفافه، ويلجأ إليه في ملماته، ويأمنه على عوائده، فالقوم كانوا على شكهم وضلالهم لا تزال فيهم بقية من معادن الخير تدفعهم إلى تكريم ذوي الخلق الكريم[1]. . حتى لا

(1) قبل أن يأتي بعض فلاسفة هذا العصر المتقدم ليسوغوا ضلال الإنسان ويزينوه بل يحتموه ويروجوه، ويلقوا مزيداً من الأضواء على نقاط الضعف البشري ولحظات هبوط الإنسان وعورات نفسه وفكره وحسه، فيزهدوا الصالحين في الخير، ويثيروا في الأشرار نوازع =

يُظن أنه ﷺ حاد ونبذ أخلاقياته حذراً من اللوم الجماعي أو خوفاً من الفتنة الظالمة.

وأما حياته الخاصة: فقد بدأت النبوة وهو في الأربعين من عمره أي حين تكتمل الشخصية، وتثبت موازينها، وتجتمع مقوماتها، ويتم استواؤها، وتزكو ثمارها!.. وعاش عيشة ساكنة، سليماً من الأذى، مصوناً من الاعتداء، لم يتعرض لمرض عضال، أو فقر منهك، فتتبدل نظراته إلى المتعارفات، وينسف بداخليته كل الميول الطيبة والأخلاق الحميدة، ويلقي عن عاتقه متاعب الالتزام، ويبدل صدقه بعكسه، ليحقق بغيته في الانتقام من الأحياء والقدر، معرضاً نفسه للوم، مضحياً بمكانته في قلوب القوم!.

كما لم تبرق أمام عينيه ﷺ برقة طمع غلّاب في الحصول على مكانة فريدة أو اكتساب عرض دان، فيهرع إلى ادّعاء النبوة ليبلغ مطمعه، فلم تكن هناك منافسة على ملك العرب فيوفض محمد ﷺ إليه، عن ذلك الطريق الشاق طريق النبوة، كما أنه لم يدعُ لملك العرب.

والناس في بلده لم يفكروا بالنبوة، ولم يتحدثوا عن الأنبياء عليهم السلام في مجالسهم، ولم يستعرضوا للناشئين حياتهم ومواقفهم وإصلاحهم، فتنطبع في فؤاده وعقله مشاهد معالم حياتهم، ويقوم بتمثلها، ليتوسل بذلك إلى بلوغ مراده؛ فقد جاء على فترة من الرسل، لذلك لاقت دعوته ودعواه النبوة إباءً شديداً وإنكاراً غريباً من أكثر القوم.... كما لم يظهر في أرض الجزيرة

= السوء؛ فيقول أحدهم وهو ميكافللي: «الغاية تبرر الوسيلة»، ويأتي أناتول فرانس بهذا التفسير السيىء للخلق الإنساني إذ يقول: «الفضيلة عجز» بينما يقول سويفت واثقاً: «لا يوجد إنسان محصّن ضد النفاق!» أما أوسكار وايلد الكاتب الإيرلندي فإنه يدعو قراءه إلى طريقة عجيبة في إباء الفساد ومقاومة فتنته فيقول:

«خير طريقة لمقاومة الإغراء... هي الخضوع له»، وآخرون من دونهم الناس تعلمهم.. مثل فرويد، ودوركهايم، وسارتر وغيرهم.

مدّعون للنبوة قبله، ليقتفي آثارهم، ويشاركهم ادّعاءهم، فقد جاء المتنبؤون السذج بعده!.

وبعد أن ذكرنا بعض شهادات الأعداء بصدقه، وبيّنا استحالة ميله عن الصدق الذي درج عليه، نتلو قول ربنا تبارك وتعالى يخاطب نبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33] أي أن القوم لا يتهمونك في خلقك الثابت، ولا ينسبونك إلى الكذب أبداً، ولكن كراهيتهم لموضوع الرسالة التي تواجههم بها ليل نهار، وتعيد بناء الأنفس والأوضاع وفق منهاجها، هي التي جعلتهم ينكرون آيات الله، ويكفرون بنبوتك، إذ عز عليهم فشلهم في المواجهة العلمية للإسلام، وانهار دفاعهم المتقدم والمتأخر أمام القرآن، فجحدوا الحق بعد معرفته وتيقنه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

هل ألّف محمد ﷺ القرآن الكريم؟ أم علمه بشر؟

وإذا زعم بعضهم أنّ محمداً ﷺ قد افترى القرآن الكريم فمن هو الذي أمدّه بالعلم الذي فيه في نظرهم؟ هنا تتضارب الآراء، فمنهم من زعم أن القرآن من تأليف محمد ﷺ وإنشائه، ولكنهم استكثروا على النبي ﷺ أن يكون هذا الكتاب المعجز من فكره وحده، فزعموا أن قوماً آخرين أعانوه على عمله وساعدوه في إخراج كتابه وإكماله!: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: 4] ومنهم من نفى أن يكون ﷺ قد جاء بشيء من القرآن الكريم من عند نفسه، ولكنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: 103] ومنهم من هوّن الأمر أكثر فالمسألة ليست مسألة علم موثوق خالص في زعمه، لا علماء يعلمون، ولا متعلمون واعون:

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: 5]، ومنهم من لم يرض إلا أن يعرض تفكيره لسخرية التاريخ وضحك العلماء حين وصف محمداً ﷺ بوصفين يفترقان ولا ينسجمان ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ [الدخان: 14].

فأما قول من قال: «إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ»، فمردود على قائله وذلك لأن القرآن لو كان إفكاً افتراه محمد ﷺ بخياله، وموهبته، وعلمه، وقدرته على التأليف والربط بين الأفكار - وما محمد ﷺ إلا رجل يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون ولا يعلم إلا ما يعلمون - فلماذا لم يعارضه البلغاء والشعراء والحكماء والكهان، فرادى أو مجتمعين؟ هل غارت المواهب، وماتت الهمم، وجمدت الشاعرية؟ لقد تحدى القرآن الكريم المنكرين للنبوة بأن يأتوا بمثله وأمهلهم أمداً طويلاً، ليجمعوا فيها كيدهم وشركاءهم، ويحضروا مصادرهم ومراجعهم، ويعملوا فكرهم، ويشحذوا وسيلتهم، فعجزوا، وقد كرر التحدي، وخفف لهم في الكمية؛ فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن الكريم فأحجموا ولم يقدموا ولم يحاولوا!..

وعاد القرآن الكريم يتحدى القوم أن يأتوا بأصغر وحدة من القرآن الكريم «أصغر سورة». إنها عشر كلمات، الحروف أمامكم يا قوم، تخفيضات ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: 38]، ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ [الصافات: 26] وسكت القوم ولم ينبسوا ببنت شفة: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: 14].

يا قوم: إن كان محمدٌ ﷺ غير راضٍ بتراثكم، وكنتم معتزين بذلك التراث، غيورين عليه، كارهين للافتراء، فما الذي صدكم عن الدفاع العلمي عما به تعتزون؟ وعليه تغارون؟ ولمَ لمْ تحفزكم تحديات القرآن الكريم المتتابعة على إبداع كتاب أو كتيّب يرضي ذوي الألباب بصواب فكركم

وعقائدكم، ويبطل الافتراء المزعوم، ويغنيكم عن تبديد طاقاتكم وتمزيق روابطكم وإسالة دمائكم؟ ولهذا يقول القاضي عياض في كتابه «الشفاء»: «فترك العرب الإتيان بما في مقدورهم أو ما هو جنس مقدورهم، ورضاهم بالبلاء، والجلاء، والسباء، والإذلال، وتغيير الحال، وسلب النفوس والأموال، والتقريع والتوبيخ والتعجيز والتهديد والوعيد، أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله والنكول عن معارضته»[1]. الحق هو الذي يدمغ الباطل، ولا يطمس باطل حقاً طمساً أبدياً في عصر من العصور إن كان وراء الحق مطالب ثابت، فكيف إن كان مع الحق البأس الشديد، والعرف السائد، وهيبة الشعور بقدسية ذلك الحق؟ أين المعارضة، وعباداتها، وأعرافها وعاداتها المستحكمة؟..

ولو ظن شاك في التاريخ أن المعارضين قد عارضوا القرآن بمثله أو شبيهه، وأن محمداً ﷺ قد أعدم كتابهم، ومحا أوراقهم، فلم لم يعاودوا الكرة ويكرروا المحاولة بعد وفاته عليه ﷺ أو بعد اضطراب الأوضاع في الدولة الإسلامية في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وخلافة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حيث ثارت الفتن، وخرجت بعض المذاهب والمدارس تظهر نفسها في دعوات متباينة بعضها يجتمع على الاعتراف بالإسلام ديناً للدولة والحياة ظاهراً، وتختلف في تفسيره والعمل به، ومنها ما مال عنه بتفسير باطني وتأويل غير محكم، لكن الجميع ركنوا إلى ركن الإسلام، حتى أن المتنبئين الكذبة الذين ادّعوا النبوة أدركوا أن العرب لاتقبل مراجعة تراثها الفكري الذي نقضه القرآن الكريم فاعترفوا بشعار الإسلام «لا إله إلا الله»، كما اعترفوا بنبوة نبينا محمد ﷺ، ولم يحاولوا استمالة الناس إلا بالكيد للإسلام وتخفيض بعض تكاليفه، والتنصل من بعض ما حكم به،

(1) الشفاء للقاضي عياض، الجزء الثاني، ص: 313.

وما سطره مسيلمة الكذاب كان مهزلة وشؤماً يقصه المؤرخون للعلم بعجز هذا المتنبىء في حديثه عن نقيق الضفدع، ودعوته للمتنبئة للفراش، وغير ذلك من المسجوعات المملّة القليلة.. ثم ما هكذا يفعل الفكر البشري، فإنه قد يحدث تغييراً في الناس، ولكن ذلك التغيير لا يكون دائماً يتجاوز القرون الطويلة، ولا يكون على الأكثر فورياً طوعياً، وقد يلتزم أو يلزم بها مجموعة كبيرة من الناس أو قرن إنساني، ولكن فكر البشر لا يملك سلطة الإلزام للمجموعات التالية والقرون المتعاقبة، بل لا يضمن دوام وجودها وسلامة ظاهرها وباطنها لكونها بضاعة الإنسان التي تتأثر بنقصه وحاجته، وتتبدل بالتفاعل الحتمي والتلاقح المستمر بين مختلف الاجتهادات والتفسيرت التي تحوم حول الفكرة الواحدة، فبقاء القرآن الكريم قريباً إلى القلوب، مهيمناً على التوجهات، لا يقبل التحريفات والتقوّلات، قادراً على العطاء، معجزاً للمحاولات الإنسانية، سابقاً للعوالم العصرية.. حجة وبرهان على تنزيله من الله سبحانه.

وأما شبهات المشركين في كون القرآن الكريم من عمل بشر مع النبي ﷺ أو دونه فتبينها هذه الآيات الكريمة التي تبين لنا بأمانة علمية كاملة كل ماكان يردده المشركون حول الرسالة والرسول ﷺ من افتراءات وشبهات:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ [الفرقان: 4].

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103].

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: 5].

ومقولات الكافرين متناقضة ومتهافتة؛ فأما تناقضها فجلي بيّن، ذلك لأن

قولهم الأول في آية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ [الفرقان: 4] يجعل القرآن من إنشاء محمد ﷺ بالاشتراك مع جماعة آخرين، بينما قولهم الثاني في آية: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: 103] ينفي كون القرآن من إبداع محمد ﷺ وإنشائه وينسبه كله إلى ناس آخرين! كما إن قولهم الآخر: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: 5].. يثبت أميته وأنه لا يعلم القراءة والكتابة معاً فهو قد «اكْتَتَبَهَا» أي طلب من شخص «ما» كتابة القرآن الكريم له، كما أنّ آياته كما يزعمون: ﴿تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: 5]، أي أن هناك فرداً أو أفراداً يقرؤونها له يومياً صباحاً ومساءً، فكأنه خال من العلم تماماً، غير قابل لتعلم موضوعات الكتاب واستيعابها دفعة واحدة ليحتاج إلى من يملي عليه في كل يوم مرة أو مرتين!.

وأما كذب مقولاتهم فسنتحدث عنه في هذه السطور.. إذا ما بحثنا عن هوية أولئك البشر الذين زعم المشركون أنهم علموا النبي ﷺ، أو أعانوه على التأليف، أو كتبوا له وأملوه عليه، لم نجد إلا قول الله سبحانه الصادق في القرآن الكريم: النحل: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103]، أي أن هناك رجلاً أعجمي اللسان، ينسب إليه المشركون فضل تأليف هذا القرآن الكريم وتعليمه لمحمد ﷺ، فمن هو ذلك الرجل؟ قيل أنه سلمان الفارسي، ولكن سلمان رضي الله عنه لم يعرف الرسول ﷺ إلا بعد هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، أي بعد نزول كثير من الآيات، وخبر إيمانه بعد تحققه من علامات نبوته مذكور في كتب الحديث والتاريخ وقيل: إنما هو رجل رومي على خلاف في اسمه «جبر، أو يسار، أو بلعام، أو يعيش» كان لا يعرف من اللغة العربية سوى عبارات يسيرة يرد بها على أجوبة الخطاب في الأمور الضرورية، تغلب العجمة لسانه، وتغطي كلامه، كان النبي ﷺ يجلس عنده عند المروة

ليتلقى منه، فيا له من اتهام لا يثبت أمام الميزان، فذلك الرجل الرومي إما أن يكون مسلماً أو غير مسلم، فإن كان مسلماً كما جاء في بعض الروايات فكيف علم محمداً ﷺ وقد أنزل عليه الكتاب من قبل إسلام الرجل؟ وما الرجل الرومي إلا كعامة من أسلم وآمن بنبوته وأخذ عنه القرآن الكريم وتعرف بواسطته على كتاب هذا الدين.. وإن كان غير مسلم، بل كان يعلم علم الكتب السابقة، فلماذا خص محمداً ﷺ بتعليمه، وبعد بلوغه ﷺ أربعين سنة من عمره، ولم يطلع أحداً من أهل مكة على علمه وفقهه المخزون، مع أنه - أي الرجل الرومي - كان بين أظهرهم طول حياته أو حياتهم، يكلمهم ويكلمونه، ويخالطهم ويخالطونه!.. وإن كان الرجل قد خص محمداً ﷺ بتعليمه لغاية في نفسه نجهلها نحن، فلماذا لم يراجعه أهل مكة ليتلقوا عنه ما تلقى الرسول ﷺ من قصص وشريعة وغيب، ثم يذيعوه على الناس في أوسع نطاق وأرحبه، لصرف الناس عنه؟؛ إذ يجدون أنفسهم مخيرين بين البقاء على سنة الآباء وتراث الأجداد مع الإحاطة بعلم الكتاب وبين اتباع الرسول ﷺ؛ فيؤثرون الأولى على الآخرة، وينفضّون عن محمد ﷺ سراعاً، وإن تأبّى الرجل عليهم ومنع عنهم علمه الوافر، فلا أقل أن يحاولوا قطع صلته بالنبي ﷺ، كأن ينفوه ويبعدوه، أو يثبتوه ويحبسوه، وهو الرجل الذي لا عصبية له في مكة ولا عصبة تقف من خلفه تحميه، فلا يلقى الرسول ﷺ أبداً، ولا يجتمع به، ولا يعلمه!، أو يعذبوه حتى يموت تحت العذاب البطيء حتى ينقطع عن محمد ﷺ ويهجره هجراً غير جميل، فينحصر مدده العلمي، دون أن يتكلف القوم عناء، أو يبذلوا جهداً، أو يريقوا دماء، وهم الذين لم يرقبوا في مؤمن إلّا ولا ذمة، وجعلوا من أجسام المستضعفين الغرباء أمثال: بلال الحبشي، وعمار بن ياسر، وصهيب الرومي، وغيرهم، حقول تجارب التعذيب أو الإحراق؛ حيث لم يكن لهم جاه عتيد أو نسب بعيد أو ركن شديد، وما كان ليعجزهم ذلك المعلم الفذ، أو ينجو من قبضتهم الظالمة..

وكيف يتمكن بشر واحد أو جمع حاشد أن يضعوا هذا الكتاب الحافل بالأنباء الغيبية الصادقة المتجردة من زيادات المستزيدين وزيادات المبتدعين، والحاوي على أحكم شريعة اجتماعية وأعدلها وأصدق حق علمي، والمتميز بقوة خطابه، وبلاغة لفظه، وحسن تصويره وقصصه، وتوافقه مع العلم المعاصر، ومسايرته لتطور الحياة، وصلاحه لفضاء كل عصر؟!.. لقد قرر العلماء الماديون في مؤتمر المستشرقين سنة (1954) طعناً: أن هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد وهو محمد ﷺ، بل من عمل جماعة كبيرة، وإنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية! بل إن بعض أجزائه قد كتب خارجها!!.. وقد دفعهم إلى هذا التقرير الباطل عدم قبولهم لتمكن رجل محدود العلم والمواهب، أو تمكن شعب غير متحضر من وضع تلك الموسوعة العلمية العالمية، فكيف يقبل أو يتصور أن عبداً ألكن اللهجة، أعجمي اللغة، مفتقراً إلى حرية الحركة والتصرف، يقضي سحابة نهاره في العمل لسيده، قد علم محمداً ﷺ هذا الكتاب، وما اتهام المشركين محمداً ﷺ بأنّ هذا القرآن الكريم من وضع بشر أو بالاستعانة بهم إلا محض ظلم للحق العلمي وتزوير للخبر اليقيني الصادق ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: 4].

أما تشبيه القرآن بأساطير الأولين فما هو إلا هراء، ذلك أن الأساطير هي الحكايات التاريخية الخرافية المحضة أو المتلبسة بشيء من الحق، المسطورة في الصحف أو المتداولة بين قرون الناس؛ إذ يتولى كل قرن نقلها إلى القرن الآخر الذي يخلفه ويليه. وقد شبه المشركون القرآن الكريم بالأساطير لذكره بعض أحداث التاريخ وقصصه، وتشبيههم يدل على جهلهم بالتاريخ وعدم قدرتهم على التمييز بين رواياته الصادقة والكاذبة، وبين أحداثه الواقعة والمتخيّلة، حتى أنهم فقدوا الثقة بالتاريخ كله صدقه وكذبه؛ فكل من يتحدث لهم عن أخبار الماضي إنما هو أسطوري مخرّف، وكلامه إنما هو أساطير الأولين! كما يدل على جهلهم بما في القرآن الكريم، ذلك لأنه لم يكن يتكلم

بلغة الماضي فقط مع تميز كلماته بالصدق والعلمية في ذكر أحداثه ووقائعه وبيان مشاهده ومواقفه!، بل كان يتكلم وبنفس الصدق عن الحاضر والمستقبل القريب والبعيد، ويكشف للناس أمور الآخرة غير المشهودة كما يكشف علم الدنيا غير المعروف أو المعلوم، ويغطي أخبار الأرض كما يغطي أنباء السماء وما فيها، يسبق ويعجز الفكر بشريعته، ويتحدى الأقلام ببيانه!: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 6] ثم هل يعقل أن يتحدى محمد ﷺ، بل أي رجل عليم الناس بأساطير، فما الأساطير إلا جزء من التراث الشعبي يتوارثه الأبناء من آبائهم ويتلقاه القوم من رواتهم وقصّاصهم، ويتفكه بها السمار في مجالسهم ونواديهم، وليس من المعقول أن يدّع مدّع أن الله تعالى قد أنزلها عليه وأكرمه بمعرفتها وجعلها برهاناً على نبوته، ولإن فعل ذلك إنسان فإنه سيجلب على نفسه سخرية قومه وهزءهم، وإن تجرأ أحدهم على الافتراء على الله سبحانه ونسب الزور إليه وخداع الناس باسمه فإنه - حتماً - لا يتجرأ أن يتحدى الناس أجمعين فرادى أو مجتمعين بذلك الزور لأنه مشهور أو بتلك الأساطير التي اكتتبها لأن الجميع بأخبارها عالمون، ولوقائعها حافظون، وسرعان ما يبطل تحديه، ويُكشف أمره، ويُعرف تقوّله، فكيف وقد تحدى ﷺ الناس بأن يأتوا بسورة مثله!.

3 - بشرية الرسول ﷺ: لقد استنكر المشركون كون رسولهم محمداً ﷺ بشراً منهم ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: 4]، ولقد قالها من قبل نظراؤهم في الماضي واستنكروا بشرية الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وإنك لتجد في القرآن الكريم أمثلة من اعتراضات أقوام الأنبياء عليهم السلام على بشريتهم مثل قوم نوح وموسى وهارون وهود وشعيب وصالح، عليهم السلام... وكان أولئك قد مضى على بعضهم زمن طويل تخبطوا فيه في الجاهلية والظلمات، وجهلوا الدين الحق ورسالات وبشرية المرسلين عليهم السلام، فتخيلوا الدين شيئاً بعيداً عن الواقع، مليئاً بالألغاز

والتهاويل، وتصورت المرسَل به المنزل عليه «ملكاً» من عالم الغيب غير المنظور، عظيم التركيب، يبعث الخشية في أنفس الناس، ويقتلع جذور الأمن من قلوبهم، فما أن تقع عليه الأنظار حتى يجفل الناظرون وينكمشون على أنفسهم خوفاً من مرآه ويستسلمون لأمره رهباً، وفاتهم أن يدركوا أن رسلهم يقتضي الواقع أن يكونوا من جنسهم لأسباب عدة:

1 - إن قوى البشر العادية وحواسهم المحدودة لا تعمل إلا في نطاق الماديات المشاهدة الكثيفة، وتعجز عن التطلع إلى العوالم والموجودات الغيبية لشفافيتها ولطافة تكوينها، فالعين الإنسانية لا ترى كثيراً من الأنوار والأضواء كالضوء فوق البنفسجي، وتحت الأحمر، والأشعة السينية وأشعة «إكس»، والملائكة من النور يعجز البصر الإنساني عن رؤيتها، وهكذا وهب بعض الأنبياء - للضرورة المقتضية - فضلاً خاصاً فشاهدوا الملائكة، وتلقوا عنهم أمر الله سبحانه، لذلك تحتم أن يكون الرسول المرسل إلى الناس من أنفسهم، محسوساً، مرئياً، تُلاحَظ حركاته، وتُسمع نداءاته، يُخالط عن قرب، ويُراقب عن كثب، يأنس الخلق به ويألفون، ولا يخافونه ولا يستوحشونه، ينفعل بانفعالات الإنسان، ويتحسس معاناة المؤمنين، ويرحم ضعفهم، ويقدّر حاجاتهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]وحتى لو افترضنا أن الله ﷻ استجاب لطلب المعترضين وأرسل لهم ملكاً لجعله بشراً مجسّماً مصوّراً في صورة إنسان ولو مؤقتاً ليتيسر معاينته، ومن ثم فقد يعترض القوم ثانية إذ يرتابون في الأصل الملكي لذلك الرسول ولا يؤمنون برسالته، قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9].

2 - إن الملائكة من المغيّبات التي يبتلي الله تعالى عباده بالإيمان بها، فالذين يتيقنون صدق الرسل عليهم السلام تنفتح قلوبهم للهدى ويستجيبون لأمر الله سبحانه المبلغ عن طريق رسله عليهم السلام، أما الذين حصروا أنفسهم في حدود الشهود ولم يؤمنوا إلا بما تقع عليه العيون وتلمسه الأيادي، وتحتويه الحدود، ويتلبس بالمكان والزمان، فإنهم لا يمكن أن يكونوا «مؤمنين» لسبب واحد هو أنهم يأبون الإيمان بعالم الغيب الذي يُبنى عليه الدين، وبه يكون التزام الناس بأوامره ومناهجه، فلو أنهم رأوا الملائكة لصدقوا بوجودها فقط وتوقفوا... ولو طلب منهم الملائكة الإيمان بالله سبحانه والعمل بشريعته في حياتهم، لاشترطوا أن يعاينوه سبحانه ثم يعبدوه، ألم يقولوا له ﷺ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: 92].

3 - ألم يستكبروا ويقولوا بوقاحة: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: 21] لو افترضنا جدلاً أن القوم كانوا سيؤمنون بالله سبحانه تحت تأثير الخوف من الملائكة، فإن ذلك الإيمان سيكون أولاً مؤقتاً بمدة وجود الملائكة بين أظهرهم، فإذا غابوا أو رفعوا انحسر الإيمان في قلوب القوم، لأن البشر لتركيبتهم الاختيارية وإرادتهم الحرة يتفلتون سراعاً من القيود الظاهرية، ويكفرون بمن يرغمهم ويجبرهم على اتباع منهاج لا يرتضونه، ولا يؤمنون بفضله، إذا ما سنحت أمامهم الفرصة. وثانياً: إن مثل ذلك الإيمان غير مقبول في منهاج الله سبحانه وتعالى، الذي يقدّر إرادة الإنسان وعقله ولا يسوقه الإرهاب إلى جنة أو نار.

4 - أن الله سبحانه أنزل ملائكة إلى الأرض، لدعوة الناس إلى ربهم، لاطلع الجميع على خصائص الملائكة، وأدركوا خلوهم من الأهواء والشهوات والمطامع، لا يرجون نكاحاً، ولا يشتهون طعاماً، ولا يدافعون فتنة، ولا يعانون مشقة طاعة أو ألم معصية، أو حسرة فقد وذل وحاجة

وحرمان: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] ولكان يمكن أن يقولوا للملائكة: إنكم مثاليون غيبيّون، لا تعانون ما نعاني، ولا تتأثرون بما نتأثر به، وإنكم بدعوتكم لنا إلى اتباع المنهاج الذي تتبعونه لا تقدّرون تكويننا وقدراتها ونقاط ضعفنا، وليس لكم علينا من فضل لأنكم مخلوقون للطاعة، مصروفون عن العصيان، عبادتكم والتزامكم حركة شبه آلية صرفة خلقتم عليها، فدعونا ننسجم مع شهواتنا، وذرونا نعيش واقعنا، واعفونا من الارتفاع إلى آفاقكم العالية لأن ذلك ليس بمقدورنا، لذلك اقتضت حكمته ﷻ أن يكون النبي المرسل بشراً من جنس البشر: «يدرك كيف يفكر البشر ويشعرون، ويحس ما يعتلج في نفوسهم وما يشجر في كيانهم، وما يعانون من نقص وضعف، وما يجدون من ميول ونزعات، وما يستطيعون أو ما لا يستطيعون من جهد أو عمل، ما يعترضهم من عوائق وعقبات، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات. بشراً يعيش بين البشر - وهو منهم - فتكون حياته قدوة لهم، وتكون لهم فيه أسوة وهم يحسون أنه واحد منهم، وأنّ بينهم وبينه شبهاً وصلة، فهم مطالبون إذاً بالمنهاج الذي يأخذ به نفسه، ويدعوهم لاتباعه، وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهاج فقد حقق أمامهم بشر منهم في واقع حياته.. بشراً منهم من جيلهم، من لسانهم، يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم، ويعرفون لغته، ويفهمون عنه، يتفاهمون معه، ويتجاوبون وإياه، ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه، اختلاف لغته، أو اختلاف طبيعة حياته، أو تفصيلات حياته».

لماذا محمد ﷺ دون غيره؟

ولقد قال أحد أصحاب المراكز في مكة وهو الوليد بن المغيرة يعلل عدم إيمانه بنبوة محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] وهو يقصد بأحد الرجلين نفسه، بالثاني أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف. وميزان العظمة عنده الوليد هو الكفاءة السياسية والمال والقوة العددية، فمن ملكها كان عظيماً يستأهل زعامة الناس وريادتهم وتولى أمورهم، وما درى الوليد أن أمر النبوة لا يليق إلا برجل وقّاف عند حدود الخير، غير مفرط بحق الله وحق عباده، وأن قلباً يفيض كبراً، ويستحل أية وسيلة لبلوغ ما يريد، هو أبعد القلوب وأعجزها عن إمكانية حب الحق والتوافق مع مطالبه والفناء من أجله، وترك حظ النفس ابتغاء رفعة شأنه، وما علم هؤلاء أنه لا يمكن أن يفي بالتزامات النبوة إلا من كان ذا خلق عظيم، أما المتعاظمون الذين يقيّمون الناس بالعرف المنقطع عن الإيمان المنبتّ عن الخصائص الإنسانية الفطرية والأخلاقية الأصيلة، فلا وزن لهم عند الله سبحانه، ولا يكلمهم الله سبحانه ولا يزكيهم، ولا يدرجهم في صف المؤمنين، فضلاً عن اختيارهم لرسالته واصطفائهم لتبليغ دعوته، لأنهم ينطوون على أنفس مهينة استترت خلف المظاهر، فعظيم القوة الذي استشرف للنبوة قد أزيح الستار عن أخلاقياته الهابطة:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم: 10-14] ترى هل يبيض المال والبنون صفحة مسودة بالخطايا؟ وهل يؤهلان لأن يتمم في أنفس الناس مكارم الأخلاق، وما بعث محمد ﷺ إلا لذلك؟ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

شبه لا تستحق الجدال

منشأ بعض الشبه الواهية هو أن المشركين لما حرموا أنفسهم من الإيمان ورضوا بذلك الحرمان، وعجزوا عن كبت دعوة الحق بالإنكار والسخرية لجأوا إلى الحرب النفسية المنظمة، فهل راجعوا اتهاماتهم الباطلة له ﷺ ووزنوها بميزان العقل، وبدا لهم تهافت تلك الاتهامات وتعارضها مع بعضها؟ فحاولوا أن يجمعوا أمرهم على رأي واحد في شأنه ﷺ: وفرزوا التهم غير المعقولة والمتنافرة واتفقوا على أنه ﷺ ساحر لأنه يفرق في زعمهم بين المرء وذوي قرباه ويفصل بينهم؟ يبدو أن أهل مكة كانوا يفسرون النبوة تبعاً لأهوائهم وميولهم، فالذين بهرهم القرآن الكريم في خطابه وإعجازه البياني قالوا: إنه شاعر، والذين عجبوا من إنبائه عن الأخبار الماضية أو لاحظوا تحقق نبوءاته وتوقعاته المستقبلية قالوا: كاهن، أما من راعه تأثيره العجيب في العقل والقلب وانقياد الرجال والنساء لأمره وفناءهم في حبه واستماتتهم دونه فقالوا: ساحر سحر أتباعه وسخرهم لنفسه، أما المعتزون بالتراث، المؤمنون بصوابه، المقدسون للمألوفات السائدة فقد هالهم أن يخرج إنسان عن عرف قومه ويهزأ بتراث أمته إلا أن يكون مجنوناً مختل العقل فاقد الإدراك فقالوا: مجنون.. فما هو القدر العلمي لكل تلك التفسيرات الضالة والشبهات؟ ذلك ما سنذكره في هذه الصفحات.

١ - محمد ﷺ والكهانة:

الكاهن: هو الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية، والمشهور منه الاستمداد من الجن في الإخبار عن الغيب الذاهب.. والعرّاف: هو الذي ينبىء بأحداث المستقبل أيضاً، فهل يحتمل أن يكون ﷺ كاهناً لأنه أخبر ببعض الغيب؟.

1 - إننا لم نسمع أن كاهناً عربياً وضع كتاباً لا قبله ﷺ ولا بعده، فضلاً عن أن يضع «قرآناً» معجزاً بشريعته ومنهاجه الخلقي وإنباءاته الغيبية السابقة لعلم العصر، وقد تحدى القرآن الكريم سائر المواهب العربية البيانية والعقلية أن تأتي بآية من مثل آياته لكنها جميعاً تضاءلت، ونكست رأس الخجل، وأدارت ظهر الهزيمة.. فكان ذلك برهاناً على نبوته ﷺ ..والكاهن لا يكوّن أمة وحضارة بل كان يعيش في وسط ضيق بدائي ومعزول، ويعيش على الكذب والخداع، منكفئاً على نفسه، يزعم الاتصال بالجن كما يقول د. محمد محمد أبو ليلة.

2 - إن ما يخبره الكهان من «الغيبيات» إن هي إلا تكهنات يختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب والمبالغة، عكس القرآن الكريم الذي صدقت كل إخباراته، وتحققت كل وعوده، وانكشفت على مر الأيام وبتقدم العلم آياته ومعجزاته، ولا تزال الأبحاث العلمية والطبية والتاريخية تظهر لنا أبعاداً أخرى من إعجازه.

إن محمداً ﷺ لم يتردد على الكهنة طيلة حياته قبل النبوة وبعدها، فضلاً عن ممارسة مهنتهم واحترافها، ولو أنه كان كاهناً «حاشاه» لما صدم القوم بتسفيه عقائدهم وما به يؤمنون، ضناً بمكانته بينهم، وحرصاً على رواج دينه، وحذراً من كساد عمله فيهم، ولما حارب الكهان أجمعين وكشف تدليسهم وكذبهم على الناس، وحرم على أمته مراجعتهم وتصديقهم، فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهان، فقال: «**ليسوا بشيء**» فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرّها في أذن وليّه، فيخلطون معها مائة كذبة**»[1] ..إن نعمة النبوة وتلقي العلم الموثوق عن الله

(1) حديث متفق عليه.

سبحانه غير ضلال الكهانة وشطحاتها.. ولا يذكر بعد النبوة خبر لكهان مما يعلم بإسلامهم أو اختفائهم.

تهمة الجنون: ولقد اتهم ﷺ بالجنون، والجنون كما هو معلوم، اختلال في العقل يحرم صاحبه من سداد التصرف، فإذا كان اتهامهم له صدقاً، فلماذا حكّموه في أعسر مشكلة اجتماعية صادفتهم في حياتهم وهي مشكلة وضع الحجر الأسود في مكانه عند تجديدهم لبناء البيت الحرام كما في المطالب العالية رقم (4267؟) وفيهم أولو الرأي والذكاء، ولماذا وثقوا به تلك الثقة وأخذوا برأيه؟ مع أن المجنون لا يوثق به في أداء مسؤولية ولا توكل إليه مهمة مالية، ولا تطرح أمامه قضية استشارية أو ائتمانية، بل قد يقام عليه الحجر ويعهد إلى أحد أمر حياته وتدبير معاشه.

4 - وإذا زعموا بأنه كان له عقل ثم جُنّ، فلنا أن نسألهم: كيف إذاً تبعه ذلك الحشد من الأتباع من ذوي القربى والأباعد، ومن مختلف المستويات العلمية والاجتماعية؟ إن المجنون لا يتبعه من له عقل ويحترم نفسه، بل ينفر الناس منه، ويترفعون عن مصاحبته أو محادثته أو مجالسته، فضلاً عن اتباعه والرضا بإمامته، والإيمان بدعواه، وتجريد النفس من كل أشكال المتاع الدنيوي ذوداً عن دعوته، ودفاعاً عن نبوته. ومالنا نتكلف إبطال هذه التهمة ونقضها وهم الذين تولوا هذا الأمر، فقد قالوا عنه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: 14] وبذلك أوقعوا أنفسهم في التناقض، وإلا فهل يملك المجنون أداة العلم والتعلم المنتظم والاحتفاظ الكامل بما يتعلم؟ وهل بإمكانه أن ينشر ما تعلمه ويدعو إليه ويخطط أسلوب الدعوة وطريقة النشر والبلاغ؟ ولماذا كان مجنوناً إذن؟.

إن المجنون قد يعلم كلمات، فيرددها ببلاهة، ويجريها على لسانه ببلادة، دون أن يحيط بمغزى ما يقول، أو يدرك قدره وأثره، ودون أن يرتبط

بمقتضيات كلامه، أو يفكر في إلزام الناس به، وقد يُعلم أعمالاً يدوية بسيطة وحركات آلية يؤديها منقطعة عن توجه عام يبغيه من عمله، ومنبتّة عن إرادة واعية موجهة تدفعه إلى الحركة، وخالية من الرغبة النفسية، واللذة الشعورية التي تحث الإنسان على العمل المثمر البناء، ولكن الأعمال المتميزة والجهود المتابعة الدائمة والخصائص الخلقية والعقلية الفريدة، لا يمكن أن تتوفر أو تصدر إلا من الأسوياء، بل الممتازين منهم، بل المختارين من الممتازين الذين جعلهم الله أنبياء ومرسلين عليهم السلام. لذلك اكتفى القرآن الكريم في رده على هذه التهمة، بلفت أنظار القوم إلى سمات الرسول ﷺ الرشيدة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 184]. كلمات قليلة جامعة، أو لم يتفكروا؟ إن محمداً ﷺ ماثل أمامهم، شاخص في ذكرياتهم، متحرك على أرضهم، ينذر، ويبين، ويبني بناء المرسلين عليهم السلام، فكيف أقصى القوم عقلهم وقالوا: مجنون؟، والمجنون لا ينذر ولا يبين، ولا يصبر على تكاليف الإنذار المبين.

٢ - الشاعرية:

أما نسبته عليه السلام إلى الشاعرية فإن هي إلا نسبة باطلة وذلك عن عدة وجوه:

1 - توجد فروق بيّنة واختلافات بين مانزل عليه ﷺ من «قرآن كريم» وبين الشعر من الناحية «الأدبية والفنية»؛ فالشعر الجاهلي خاصة يتميز بقافيته ووزنه، ولم تكن العرب في عصر نزل القرآن الكريم تطلق وصف الشعر على كل كلام يقال ما لم يندرج في نظمه مع وزن من الأوزان الشعرية والمعروفة.. وقد علم أئمة الكفر خطأ هذه الشبهة حين استمعوا إلى القرآن

الكريم، فقد ذكر في كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال في هذا الصدد: «لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بشعر»[1]، وروي عن النضر بن الحارث قوله: «لا والله، ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه»[2].

2 - الشعر لطافة إحساس، وخصوبة مخيال، وآثار موهبة تنمى بفعل المؤثرات الخارجية، تبدو بواكيره في الصبا، وتتأصل أصوله في الشباب.. ولكن محمداً ﷺ لم ينطق شعراً، فضلاً عن أن يُعرف بنظمه في المرحلة المتقدمة في شبابه، أئذا ما بلغ أربعين سنة انقلب فجأة شاعراً بين عشية وضحاها؟... وقد يكون هناك ناس تؤثر في أنفسهم بعض المؤثرات في السنين المتأخرة من أعمارهم، فتفجر طاقاتهم الشعرية المستكنة وينظمون قصيدة أو قصائد قليلة، ينضب بعدها معينهم الشعري ويسكتون، فلا ينطقون شعراً، أو يحومون حول أمر واحد لا يتجاوزونه، أو في الأقل تبدو على أشعارهم اللاحقة علامات الضعف، أما القرآن الكريم فقد كان الرسول ﷺ منذ اليوم الأول من أيام الوحي، وحتى قبيل وفاته ﷺ، يتلوه المرة تلو المرة دون أن نجد عليه مآخذ أو نقص مما يظهر بأنّه تنزيل من الله سبحانه.

3 - لو كان ﷺ شاعراً لقرّب إليه جميع الشعراء، وجالسهم، وانتفع بمواهبهم في تقوية أمره، والتمكين لدعوته، ولما كان يكشف القرآن الكريم نقاط ضعفهم وثغرات عملهم الشعري بنص لم يزل حجة على الشعراء إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم: الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

(1) تهذيب السيرة، ص: 85.
(2) نفس المصدر، ص: 69.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء: 224-227] (1).

4 - إن دواوين الشعراء يكثر فيها التناقض والاختلاف، حيث تتباين وجهات نظر الشاعر المنعكسة على أشعاره بين شبابه وشيخوخته، وحزنه وفرحه، وغناه وفقره، وهزيمته ونصره، ومرضه وصحته، ونشاطه وهموده، ورضاه وغضبه، وانطلاقه وانبساطه وانقباضه... وذلك لأن الشعراء بحكم قصورهم اللازم لإنسانيتهم ولما يتفردون به من خصب المخيّلة، وشاعرية النفس، وتقلب الانفعالات، والاسترسال مع الآمال الطائرة، والانسياق مع أهواء النفس وتطلعاتها الحالمة الموهّمة، يكونون أسرع تأثراً بالعوارض النفسية من غيرهم، فيبالغون في تصوير الحياة والأحداث اليومية، ويخضعون ملكاتهم البيانية لهواتف المزاج المتقلب ونداء اللحظة الحاضرة التي ينعمون بها أو يعانون منها، ويتنبأون بأمور لا تقع أبداً، ولذلك قيل في وصف الشعر «أعذب الشعر أكذبه».. فإذا ما صحت عقولهم بعد غفلة، أو استوت بعد قصور، أو زاد علمهم من بعد علم شيئاً، تغيرت تبعاً لذلك مواقفهم، وكفّوا عن غلوهم، ورجعوا عن تقريراتهم. وانظر في الآية السابقة لتجد صدقيّة ذلك.. وقد ذكر في تفسير هذه الآية إن الشعراء: «يتبعون المزاج والهوى، ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى، الذين لا منهاج لهم ولا «غاية».. وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات...

وهم يقولون ما لا يفعلونه، لأنهم يعيشون في عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ويؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم، ومن ثم يقولون

(1) انظر في ظلال القرآن/ سيد قطب.

أشياء كثيرة ولا يفعلونها، لأنهم عاشوها في تلك العوالم الموهومة، وليس لها واقع ولا حقيقة في دنيا الناس المنظورة...».

أما آيات القرآن الكريم فإننا نلاحظ عليها أنها لا تجمع كثيراً من أمور الحالة الفكرية والنفسية والشعورية للنبي ﷺ، مع سلامة فكره، وصفاء نفسه، وتوازن عواطفه، فلا تكاد تجد فيها سائر مشاهد الأيام والسنين، ولا تجد بينها صوراً تعكس نزعات النفس وانفعالاتها العارضة، فقد كان ﷺ بشراً يرضى ويغضب، ويكره ويحب، ويمرض ويشفى، ويُصاب ويُبتلى، ولكن لم تذكر جميع أحاسيسه وانفعالاته في القرآن الكريم.

5 - فرح بإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، وعودة جعفر رضي الله عنه من أرض المهجر، وأعجب بكثير من المواقف الإنسانية والمشاهد الواقعية فلم يظهر فرحه وإعجابه في القرآن الكريم ولا بكلمة. ومات ولده إبراهيم فدمعت عيناه وحزن قلبه، وتوفيت زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها فتجدد حزنه واعتصر الأسى قلبه، ولكن لا نجد في القرآن الكريم لهم رثاءً، ولم يخلد ذكرهم فيه بنبأ أو إعلان!..

6 - وهجاه شعراء المشركين فلم يستفزه هجاؤهم ولم تستثره افتراءاتهم، ولو كان شاعراً لقابلهم ورد عليهم، ولكنه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: 1-2] لذا كلف بهذا الأمر حساناً الشاعر إذ قال له: «**اهجهم وجبريل معك**»[1].

إنها النبوة: بلاغ من الله سبحانه وتلاوة لكتابه وتنزيله، لذلك بقي القرآن الكريم بعيداً عن الاختلاف والتناقض والمبالغة والبشرية: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ

(1) حديث صحيح. التجريد الصريح للزبيدي، ج2، ص: 307.

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: 41].

إنّ القرآن الكريم فيه جملة من أنباء الغيب، وسر العلم، لو اجتمع كل الشعراء والأدباء والمؤرخين والعلماء في عصره لما كشفوا منها إلا شيئاً يسيراً، وما حققوا في بابها إلا كسباً ضئيلاً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، والشاعر ما هو إلا إنسان من فكر وسطه، وعلمها، وآدابها، واهتماماتها، محدود بحدود طاقته العقلية وإمكاناته المادية، إن علم شيئاً عن حاضره جهل كثيراً عن ماضيه ومبدئه، وإن أحاط بعلم عصره عجز عن استطلاع المستقبل واستنطاق الأيام واستكناه الغد القريب. وقد ذكر القرآن الكريم شبهة الشاعرية واكتفى بنفيها فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69].

قال القرآن الكريم: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: 31].

٣ - محمد ﷺ والسحر:

ولقد كان وصف السحر هو في رأي أئمة الكفر هو أصدق وصف لعمل الرسول ﷺ، فقد اتفقت كلمتهم على كونه ﷺ «ساحراً». . فهل يوجد شبه بين القرآن وبين كلام السحرة؟.

السحر خداع للأبصار بحركات لطيفة غريبة، يأتيها السحرة بما تعلموه من فنون السحر وطرقه وعلومه المعروفة، وما يتميزون به من رشاقة الإشارات، وخفة الحركات، وسرعة التمثيليات، فيبرزون للمشاهدين أوضاعاً معينة، أو يوحون إليهم بأمور خاصة، تراها العيون مشاهد واقعية، فتنقلها إلى الجهاز العصبي أو المخيال التي تتأثر بلقطة البصر المسحور، فتظن أنها أمام

فكرة ثابتة، أو منظر حي، فمنطقة التسحير الأولى هي «الأعين»، ولذلك قال الله سبحانه عن عمل سحرة فرعون أنهم: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116] و﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: 66]... فلو كان ﷺ ساحراً لخلب عقول القوم كلهم وسحر أبصارهم جميعاً. ولذلك قال تعالى في بيان تأثير سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116] ولم يقل سحروا أعين البعض من الناس بينما امتنع الباقون على التأثر؛ إذ لا يملك إنسان «ما» مناعة ذاتية ضد السحر ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ [طه: 67]، حتى موسى عليه السلام وهو النبي الموحى إليه من الله رب العالمين... ولو كان ساحراً لسحر أشد أعدائه لتمرير خطابه على الدهماء والبسطاء والعامة من القوم الذين يتبعون القوي الغالب إذا ما أعطاهم رغبهم وأصلح مشاكلهم، ولسحر أقرب ذوي قرباه وضمهم لصفه وأوقفهم إلى جانبه ليشدوا أزره ويعمموا دعوته مثل عميه أبي لهب وأبي طالب.. والسحرة إنما يستعملون ألفاظاً وتمتمات ومصطلحات ورموزاً وألغازاً مبهمة المعنى، غير موسيقية الإيقاع، ولا متساوقة الأداء، ينبو عن سماعها الذوق السليم، وتنفر الأذن من الإنصات لها فضلاً عن التلذذ بذلك الإنصات، أما آيات القرآن التي كان يتلوها ﷺ على الناس فتعلم العرب بأنها آيات بينات، موسومة بالحسن، ظاهرة الجلال، تخاطب العقل والقلب والنفس، وتهتف بالإنسان إلى عمل الخير وحب الحق، وتضع أمامه منهاجاً كاملاً للحياة، ونوراً صادقاً للمبدأ والمصير الإنسانيين، ثم تدعه في خيرة من أمره ورأيه إن شاء أسلم للحق وهديه ومال مع مده، وإن شاء قيد نفسه بحبل الضلالة وآثر الاستجابة لدواعي الهوى، والاكتفاء بمتاع الدنيا فلم يشرح صدره للإسلام... وإن كان في القرآن الكريم تأثير سمي سحراً فهو أثر الحق الخالص، ذلك لأنه من كلام رب العالمين، خالق الإنسان، العليم بنفسه ومكونات ظاهره وباطنه، ومن هنا جاء تأثيره على الفطرة، واستيلاؤه

السريع على منافذ الحس، وتغطيته اللطيفة لمساحات الفكر والقلب والنفس والفؤاد، ولو إلى حين، خصوصاً إذا ما تلاه رجل مؤمن، حسن الصوت، جيد الترتيل والتلاوة، يتأثر ويتدبر، ويكون خاشعاً مخبتاً حين التلاوة؛ فيغدو السامع له منجذباً خاشعاً، ناسياً نفسه ومشاغله ومتاعبه مع حسن تصويره، فإما أن يتحرك في قلبه الإيمان وتثور دواعيه أو - في الأقل - تترك في الحس آثاراً، وتحدث في المشاعر هزة وانبهاراً!..

ولقد فرض القرآن الكريم أثره على أشد القلوب عناداً وقسوة واستكباراً، وأذاقها شيئاً من حلاوته، عندما استمع إليه أصحابها بدون حاجز نفسي وحائل من الرياء الاجتماعي، فهذا الوليد بن المغيرة زعيم قريش الذي فكر وقدّر وقال في القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24]، يقدم عن هذا الكتاب بين يدي قومه أحسن تقديم كما في رواية للحاكم[1]. على شرط البخاري..

وقصة إسلام عمر رضي الله عنه بعد سماعه آيات معلومة، ولا زال القرآن الكريم يؤثر في قلوب أهله بالرغم من بعدهم عن الأجواء الدينية، وعدم استعمالهم وفقههم لكثير من كلماته، وتكلمهم باللغات المحلية أو اللهجة العامية، بل إنه ليؤثر على غير أهله كذلك، الذين لا يعلمون من العربية كلمة، فضلاً عن أن يحيطوا بآدابها وعلمها وطرقها الكلامية والتصويرية؛ فقد روى أحد العلماء هذه الحادثة الطريفة قال: «كنا على ظهر الباخرة في عرض الأطلنطي.. حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب: ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة وكثير من عمال المركب أهل النوبة... وألقيت خطبة الجمعة متضمنة آيات من القرآن في ثناياها، وسائر ركاب السفينة من جنسيات

(1) الحاكم، 2/ 507.

شتى متحلقون، يشاهدون!، وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا - من بين من جاء يعبر لنا عن تأثره العميق بالصلاة الإسلامية «سيدة يوغسلافية» جاءتنا وفي عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفي صوتها رعشة، وقالت لنا في إنجليزية ضعيفة، أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم.. ولكن ليس هذا ما جئت من أجله.. إنني لا أفهم من لغتكم حرفاً واحداً غير أنني أحس أن فيها إيقاعاً «موسيقياً» لم أعهده في أية لغة.. ثم إن هناك فقرات مميزة في خطبة الخطيب هي أشد إيقاعاً... ولها سلطان خاص على نفسي».

كما يذكر أن أميراً هندياً بوذياً أسلم بعد سماعه لتلاوة من الشيخ محمد رفعت، صاحب الصوت الأخاذ الذي ينساق مع كل كلمة يتلوها حتى تكاد تعطي الكلمة تفسيرها، وينساب صوته مع كل آية فتخرج بوزنٍ وتدخل قلوب المؤمنين دون استئذان، ويموج مع كل معنى ويهاجر إلى أجوائه فيظهر لك الحق كما هو.

ولذلك يقول الأستاذ الأديب مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن القرآن الكريم بعدما يرد الافتراء عنه بالسحر والشعر والأسطورية أنه: «نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول!».. ولقد قرأت قصص كثيرين من الذين آمنوا في الغرب والشرق فعلمت أن القرآن الكريم كان في خطابه وأثره هو سبب إيمانهم.. كما أظهرت دراسة إحصائية أن القرآن الكريم يؤثر حتى فيمن لا يفقهه.

حوار مع المعاصرين

النبوة والعبقرية:

بما أن الذين بحثوا في حياة محمد ﷺ ودعوته من المستشرقين لم يؤمنوا بالنبوة أو لم يسلّموا بها له ﷺ لدوافع دينية أو فكرية أو نفسية، وكما أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن الكريم إذ تبين لهم أنه أصدق كتاب على الإطلاق، وعجزوا عن إرضاء قومهم أو قرائهم بوجود نقص في عقل محمد ﷺ أو خلقه أو جسمه، فإنهم توجهوا وجهة أخرى في بحوثهم التي سموها موضوعية ظاهرها العلم وباطنها اللبس، قالوا عنه ﷺ مقاربات لغوية: عظيم، ومصلح، وزعيم ناجح، أما القرآن الكريم فزعموا أنه أثر عبقريته الخاصة وخياله القوي وعلمه الواسع، ولم يحذر بعض المسلمين هذه الأسماء إذ ظنوا أن الناس بخير، والكراهية التاريخية قد خفت، وأن بعض الكتاب يقتربون من الإسلام فما هو إلا أن تدعوهم للإسلام فيستجيبون، ولكن الحق أنّ الأعمال بالنيات، وأنّ كون بعضهم قد وافق الحق أو قاربه وقدّر محمداً ﷺ قدره كمؤلف كتاب أعظم مائة في التاريخ وغيره.. لا يقتضي أن لا نتبين وجهاً آخر لإطراء البعض له ﷺ وتعظيمهم له، وهو أنّ ذلك قد يكون على حساب الضعف أو الشك في الإيمان بنبوته ورسالته، إن ما نريده هو أن نحفظ صلة أتباعه الإيمانية الملزمة، فلا تستبدل بصلة أخرى غيرها، هي صلة البحث التاريخي المجرد، كي لا تهن صلة المسلمين بشريعتهم أو تزول تدريجياً إذا ظنوها من إنشاء عبقرية، إن صلحت لظروف وأنفس وأوساط معينة لا تبلغ أن تتصف بتلك السمة التي تؤهلها لمواجهة ما يستجد من مشاكل الإنسان، وما يتغير من الأذواق والحضارات ودواعي الظروف والمناسبات.

إن المؤرخ في القرن العشرين وهو يكتب تاريخ قرون خلت عليه أن يتحرر أولاً من كل حكم مسبق، ومسلّم عصري، ونظرة فلسفية ضيقة، وأن يقدر جميع العوامل الظاهرة والخفية التي ساهمت في صنع التاريخ وتوجيه حركة الإنسان فيها حق قدرها، بدءاً من الزمن، والمستوى الحضاري، والوسط الاجتماعي، والحاجة الإنسانية، والتركيبات المتنوعة للرجال، والأوضاع العالمية المؤثرة في الأحداث.. إلخ[1]. ولكن ليس من حقه أبداً أن ينكر الأمور الغيبية كالنبوة، أو يتجاهل دورها في صناعة التاريخ وقصصه الإنساني لا لسبب إلّا لكونها غير واقعة في دائرة الرؤية الإنسانية الاعتيادية، ذلك لأن منطق التاريخ يلزمه بالتسليم بالأخبار التاريخية المتواترة التي أثبتت وجود الوحي والنبوات وجوداً مقبولاً متكرراً متلاحقاً، وفي قمة تلك الأخبار: خبر القرآن الكريم الصادق، وأخبار الأنبياء عنها عليهم السلام، وآثارها على ألسنتهم وحياتهم وخطابهم ودعوتهم، وسماتها المميزة في مناهج عملهم في إصلاح أممهم..

إن مرور أكثر من أربعة عشر قرناً وهي قليل في حساب التاريخ البشري على نبوة محمد ﷺ وتلقيه الوحي من رب العالمين ليس بوسعها أن تجرد ذلك النبي الكريم ﷺ من خصيصته النبوية التي عرفه بها العالم كله؛ إذ ليس في مقدور الزمن قل أو كثر أن يغير الحق أو يتلاعب به.. إن المؤمنين قد ميزوا عبر التاريخ بين النبوة وبين سائر الظواهر الخفية السائدة في وسطهم كالسحر والكهانة، والشعوذة، تلك الظواهر الناشئة من الأنفس الخبيثة والمستمدة من وحي الشيطان، وليس من العسير عليهم اليوم أن يميزوا بين وحي الأنبياء عليهم السلام، وبين آثار العباقرة المبدعين الذين يأتون إلى الدنيا ويغادرونها دون أن يخلفوا وراءهم إلا شيئاً من الذكر الحسن أو ظلاً من الأثر الضعيف،

(1) انظر: محمد رسول الله، أيتين دينه. ترجمة د. عبد الحليم محمود.

إن لم يتركوا سوء الصيت أو اللعنة الماحقة.. ولقد أصاب د. سنوك هرغرنجة حين قال: «إن سير محمد ﷺ الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضيٌّ عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأي سابق»[1].

وحتى لا نتهم بالعاطفية فإننا سوف نقارن بين خصائص العبقرية ومراحلها وبين النبوة وحقها، ليعلم القارىء الفرق وأوجه التباين بين القرآن الكريم وبين الظاهرة العبقرية التي تظهر الأعمال الأدبية أو العلمية أو الفنية، وليُعلم أن التاريخ شيء وتفسيراتنا العصرية له قد تكون شيئاً آخر، فصلّ على ما يسمى بـ «ثقافة» عصر أو هواه وظنه، والحق أحق أن يتبع.

(1) هذا ما تؤكده الدراسات الاجتماعية الحديثة...